المحاضرة العشرون :مفهوم فلسفة التاريخ عند ابن خلدون وفولتير

فلسفة التاريخ بين ابن خلدون وفولتير

تمهيد

لقد تعددت التفسيرات لفلسفة التاريخ، بين علماء التاريخ والمؤرخين وفلاسفة التاريخ، وذلك راجع بالأساس إلى اختلاف المدارس التي ينتمون إليها، واختلاف العصور التي عاشوا فيها. ومن بين هؤلاء سنسلط الضوء على شخصيتين بارزتين، هما ابن خلدون وفولتير، فكيف فسّر كل منهما فلسفة التاريخ؟

1ـ ابن خلدون: عبد الرحمن ابن خلدون (1406-1332) هو أبوزيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، الحضرمي التونسي، أصله من حضرموت ولكن أجداده نزحوا إلى بلاد المغرب، أثناء الفتح الإسلامي للأندلس، ولد في تونس عام 1332م ـ 732هـ ، قضى العشرين سنة الأولى من عمره متعلما للعلوم الدينية، واللغوية والفلسفية والطبيعية والرياضية، كما قضى خمسة وعشرين سنة من عمره أيضا موظفا حكوميا بدول شمال إفريقيا، حيث كانت هذه الفترة فترة اضطراب سياسي، امتد هذا الاضطراب من سنة 1350م إلى عام 1374م، ثم عاش أربعا وعشرين سنة في القاهرة، معلما وقاضيا ومؤلفا، حتى وافته المنية في القاهرة عام 1406م 808هـ .[1]

1 ـ 1 ـ تفسير مسيرة التاريخ عند ابن خلدون: إذا كان موضوع علم التاريخ هو الحياة الاجتماعية، بكل ما يحيط بها من ضروب مادية وفكرية واقتصادية وسياسية، فقد وجب على ابن خلدون البحث عن العلل والقوانين التي تتحكم فيها، خاصة في نشأة المجتمع والدولة، أي المؤسسة التي تحكم وتسير المجتمع، وهذا الأخير هو الذي يدعوه ابن خلدون بالعمران البشري، كما انه يعنى أيضا بالبحث عن العلل والقوانين التي تتحكم في تطور المجتمع والدولة، حيث يرى أن الحياة الاجتماعية تبدأ بأشكال بسيطة ثم تزدهر تدريجيا، حتى تبلغ

---

1 ـ جاسم سلطان : **فلسفة التاريخ الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ**، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، ط4، المنصورة، 2010، ص 31.

القمة، ثم تأخذ في الزوال. حيث أن عامل العصبية هو العامل القوي، الذي يتم به اتحاد الجماعة تحت إرادة الحاكم، مع الحاجة المادية لأفراد الجماعة بعضهم لبعض.

ففي المرحلة الأولى أي مرحلة البداوة يصعب على الفرد أو الأسرة، تلبية الحاجيات الضرورية المختلفة للأفراد، من مأكل وملبس ومأوى بنفسها، كما يصعب أيضا تحقيق الأمن والسلامة، بدون تعاون وتكاتف كل أفراد المجتمع على ذلك، مما يؤدي إلى نشوء التلاحم والتماسك بين أفراد القبيلة الواحدة، وهذا ما يؤدي عند ابن خلدون إلى تلاحم قوة مركزية تسمى بالعصبية، التي هي القلب النابض للمجتمع والدولة، بقوتها تقوى الدولة والمجتمع وبضعفها يضعفان.

تعتبر العصبية العنصر الضروري الذي يربط بين العمران البدوي والعمران الحضري، خاصة في تكونهما وانحلالهما، فالدافع الذي يحول القبيلة من الحياة البدوية، إلى حياة حضرية ، والأساس الذي يضمن لها الحياة والأمن والحماية، والحصول على السلطة، يتمثل في العصبية. كما أن بضعفها يضعف تماسك أفرادها واتحادهم وتضعف حمايتهم، وبالتالي يقعون فريسة لبدو آخرين فتزول دولتهم ويزول سلطانهم، وتنشأ على أنقاضها دولة أخرى وسلطان آخر، على أيدي هؤلاء البدو الغزاة، وهو ما يجعل الدولة تمر بأعمار مثل البشر، شباب وكهولة و شيخوخة أين تزول وتموت.

إن العصبية هي روح تكاتف بين أفراد القبيلة، إلى درجة الكتلة الواحدة والجسم الواحد، باعتبارها رابطة دموية. غير أن ابن خلدون يشير إليها على أنها كل ما من شأنه أن يعزز ويقوي الروابط الاجتماعية بين أفراد العمران البشري، إذ ليست هي مفهوم ديني بحت، ولا هي مفهوم عرقي أو لغوي، ولا هي مفهوم اقتصادي معاشي، وإنما هي الرابط الاجتماعي الذي يتألف منه ذلك كله، وأكثر من ذلك فهي مفهوم اجتماعي سوسيولوجي.[2] حيث تقوى وتضعف انطلاقا من نقطتين أساسيتين هما: حياة الشظف وهي نقطة الميلاد، وحياة الترف وهي نقطة الزوال. فالحياة الاجتماعية ممثل حياة الكون، تنتقل من الكون إلى الفساد، فكل شيء له بداية وله نهاية، وبيئة العصبية هي حياة البداوة، وما تتصف به من نكد العيش

2 - ابن عمار الصغير: **التفكير العلمي عند ابن خلدون**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1978، ص ص 41 - 42.

وشظف الأحوال والتوحش في القفار، والتعرض للعدوان الخارجي، وهذا ما يقتضي التآزر والتلاحم بين أفراد القبيلة، من اجل تحقيق الأمن والسلم للقبيلة، فتشتد شوكتها ويخشى جانبها، ومنه تبقى غاية العصبية هي انتزاع الملك من أيدي الآخرين، حيث توفير الحماية بتوفير الدفاع (المدافعة)، إلى الهيمنة على الحكم أو الملك (المطالبة)، فلا يحصل الملك بدون المدافعة.[3]

1 ـ 2 ـ التاريخ ومبدأ العلية : إن مبدأ العلية الذي ينطلق ابن خلدون في تأسيسه لعلم العمران البشري، وفي تأسيسه لمنهج علم التاريخ، حاضر بشكل جلي، خاصة في صياغته لفلسفة التاريخ، حيث يعتبر أن محرك التاريخ هو العصبية، التي تشكل في نظره مصدر قوة البدو، فبالعصبية تحصل الغلبة والاستيلاء على الملك، ونتيجة للتحول الحاصل في نمط العيش عند الأسرة المالكة حيث باستئثارها بأسباب الرخاء والرفاهية، التي يعيشها أصحاب الملك، تبدأ العصبية في التفكك والضعف، وعندما يبلغ سيل الترف والبذخ والمجون منتهاه، وتبلغ حياة الحضر مداها الأقصى، تتلاشى العصبية وتقع الدولة فريسة لبدو غزاة، هم في الحقيقة ذوي عصبية قوية، لن من قوانين العلية في تفسير ابن خلدون، أن هؤلاء البدو الغزاة، ورغم قوة عصبيتهم، إلا أنهم سيشهدون المصير نفسه في وقت لاحق، بنفس الكيفية التي شهدها خصومهم. فبمجرد حصول القبيلة على الملك والسلطة، يبدأ التحول في نمط العيش، عند الأسرة التي ملكت الحكم، فيكون انفرادها بأسباب النعيم والرخاء، فتبدأ العصبية في التفكك من جديد، إلى أن يجرف الدولة سيل الترف، وما يصاحبه من فساد في القيم، ويتفشى الانحلال الخلقي في أوصال الدولة، وتبدأ العصبية في التلاشي، وتقع الدولة، فريسة في يد بدو غزاة، ويكون الحال نفسه مثل سابقتها، ومن هنا يتجلى مبدأ العلية في تفسير التاريخ واضح عند ابن خلدون. حيث نفس الأسباب تؤدي إلى النتائج نفسها.[4]

2 ـ فولتير : (**فرانسوا ماري آروويه**) بالفرنسية (François-Marie Arouet : ويُعرف باسم شهرته **فولتير**) بالفرنسية Voltaire : . (21 نوفمبر 1694 – 30 مايو 1778 م) هو كاتب وفيلسوف فرنسي عاش خلال عصر التنوير .عُرف بنقده الساخر، وذاع صيته

3 ـ عبد الرحمان ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، دار الكتاب العربي، بيروت، 2011، ص 157.

4 ـ عبد الرحمان ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ص 179.

بسبب سخريته الفلسفية الطريفة ودفاعه عن الحريات المدنية خاصة حرية العقيدة والمساواة وكرامة الإنسان .

كان فولتير كاتباً غزير الإنتاج قام بكتابة أعمال في كل الأشكال الأدبية تقريباً؛ فقد كتب المسرحيات والشعر والروايات والمقالات والأعمال التاريخية والعلمية وأكثر من عشرين ألفًا من الخطابات، وكذلك أكثر من ألفين من الكتب والمنشورات .من أشهر آثاره: «رسائل فلسفية» (1734)، و«زاديغ» أو «صادق» (1747) وقد نقلها إلى العربية طه حسين، تحت اسم «القَدَر»، و«كانديد »أو «الساذج» (1759)، و «المعجم الفلسفي» (1764).

وقد كان فولتير مدافعاً صريحاً عن الإصلاح الاجتماعي على الرغم من وجود قوانين الرقابة الصارمة والعقوبات القاسية التي كان يتم تطبيقها على كل من يقوم بخرق هذه القوانين. وباعتباره ممن برعوا في فن المجادلة والمناظرة الهجائية، فقد كان دائماً ما يحسن استغلال أعماله لانتقاد دوغمائيات الكنيسة الكاثوليكية والمؤسسات الاجتماعية الفرنسية الموجودة في عصره .

وكان فولتير واحداً من العديد من الشخصيات البارزة في عصر التنوير (إلى جانب كل من مونتسكيو وجون لوك وتوماس هوبز وجان جاك روسو (حيث تركت أعماله وأفكاره بصمتها الواضحة على مفكرين مهمين تنتمي أفكارهم للثورة الأمريكية والثورة الفرنسية .

2 ـ 1 ـ فولتير ودوره في التأسيس لنظرية التقدم : كما هو شائع عند فلاسفة التاريخ في العصر المعاصر، أن نشر نظرية التقدم في تفسير التاريخ، إنما يعود الفضل فيها لفلاسفة التنوير الذين ظهروا في القرن الثامن عشر، من أمثال **فولتير** و**كوندرسيه** خاصة. فهما كانا قد ركزا أساسا على الإنسان في قدرته على إحراز التقدم المطرد، باستخدام قدرة أفكاره وأفعاله الخارقة التي تؤدي إلى تغيير التاريخ.[5]

لقد اعتبر **كولنجوود** فلاسفة عصر التنوير، وفي مقدمتهم **فولتير** وغيره، أمثال **هيوم** و**مونتسكيو**، أئمة مدرسة جديدة معاصرة لهم، حملت على عاتقها مهمة دراسة وتدوين

5 ـ مصطفى النشار: **فلسفة التاريخ**، مرجع سابق، ص 82.

التاريخ، سميت هذه المدرسة باسم مدرسة تدون التاريخ في عصر التنوير، حيث كانت هذه الأخيرة تعمل أساسا على تطبيق الثقافة العلمانية، في ميادين حياة الإنسان وتفكيره، واعتبر **فولتير** نفسه فيها قائد لها، هدفه الأسمى فيها هو ضرورة محو الباطل والشعوذة.[6] ففي السنوات التي كتب فيها **مونتيسكيو** كتاب تأملات في عظمة روما وانحطاط الرومان، وقد كان مشغولا هو الآخر بتأليف كتابه روح القوانين، كان **فولتير** مشغولا بكتاب عصر لويس الرابع عشر، ومقالة في أخلاق الأمة وعقلها، وحقائق التاريخ الرئيسية من شارلمان حتى موت لويس الثالث عشر.

ففي كتاب تأملات في عصر لويس الرابع عشر، بيّن أن هدفه الأساسي ليس تصوير أفعال إنسان واحد، بل تصوير وتمجيد عقل الناس جميعا في خضم عصر التنوير[7]، وأن تقد الفنون والعلوم هو جزء لا يتجزأ من هذا الفعل التاريخي. أما في المقالة يقترح ضرورة تقصي تاريخ الفكر الإنساني، وبيان الخطوات التي خطاها، والمراحل التي مرّ بها، من البدائية والهمجية و الخشونة، إلى مرحلة تهذيب السلوك في زمننا الحاضر، وهذا ما يقود حتما إلى كتابة تاريخ العقل والفكر، لأن كل التغيرات التي مرت بها المجتمعات الإنسانية، سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، ماهي إلا تغيرات تحدث على مستوى الفكر. لأن التقدم الإنساني ودفع الحضارة الإنسانية نحو الأمام، إنما يكونا عبر سبيل العقل والفكر الإنسانيين .

لقد كان اعتقاد **فولتير** بحتمية التقدم الإنساني، ويظهر ذلك جليا في تقدم العقل والصناعة، كما أن الفنون المفيدة في نظره تتحسن، كما تختفي المفاسد التي حلت بالإنسان بصورة تدريجية، وذلك على يد حكام الأمم في هذه المرحلة. كما نشهد انتشار واسع للفلسفة التي ستقدم لا محالة واجب العزاء للطبيعة البشرية، نتيجة الكوارث التي ألمت بها في العصور كلها. وكان فولتير قد نقد بوسيه في تاريخه العام للإنسانية، الذي حصر فيه التاريخ العام للبشرية، في أربعة أو خمسة شعوب فقط، متجاهلا ومهملا الشعوب الأخرى، خاصة شعوب الشرق مهد الحضارات المجيدة والديانات، مثل شعوب الصين والهند وفارس وبابل وآشور ومصر.[8] داعيا في ذلك إلى ضرورة إعادة تقييم وقائع التاريخ الأوروبي، في العصر الوسيط والقديم،

---

6 ـ المرجع نفسه ، ص 83.

7 ـ مصطفى النشار: **فلسفة التاريخ**، مرجع سابق، ص 83.

8 ـ المرجع نفسه ، ص 84.

وأن التاريخ الأوروبي اللامع، إنما يتجلى في التاريخ اليوناني القديم، والتاريخ الروماني، ثم عصر النهضة فعصر التنوير. وأن عصر التنوير هذا، هو عصر الفكر التنويري، لأن معيار التقييم فيه، يعود إلى سيادة العقل، وتمكنه من إزاحة الجهل والميتافيزيقا، والأحقاد والتعصب وطرد الظلام، وهو سبيل للتقدم الإنساني نحو الكمال، معتبرا في ذلك أن العصر الوسيط هو أكثر العصور الأوروبية تدهورا وركودا. ويحمّل المسؤولية في ذلك لرجال الدين، نتيجة تعصبهم وحقدهم وعدم تحكيم العقل.

مما لا شك فيه أن **فولتير** كان قد انتقد نظرية العناية الإلهية، التي كان يتغنى بها معاصريه، وستبعدها كليا من مجال تفسير التاريخ، حيث اهتم أكثر بالتسلسل السببي للأحداث، والدوافع المباشرة للناس. وأن تفسير التاريخ في نظره إنما يكون باكتشاف هذه الأسباب، وأن الأحداث التاريخية قد تقررها المصادفة، عندما تفلت من توجيه العقل الإنساني، توجيها واعيا.[9] معتبرا في ذلك أن الله خلق العالم وفق قوانين ثابتة، ومعقولية مطلقة، لا علاقة لها بأفعال الإنسان من خير وشر. وأن الله منح الإنسان العقل، من أجل تحقيق سعادته وسعادة غيره، حيث لا مجال في ذلك للعناية الإلهية في التاريخ، وإنما تفسير التاريخ في نظر فولتير يسير بمقتضى العقل البشري، نحو الأفضل والأحسن، والتقدم إنما يقوده العقل الإنساني. وهذا التقدم هو في الحقيقة انتصار قوى النور والعقلانية على الظلام، لذا اعتبر القرن الثامن عشر أكثر القرون استنارة وتقدما، وذلك بفضل سيادة النزعة العقلية، والانجازات العلمية. كما تنبأ فولتير بمستقبل واعد وأفضل، بشرط أن يخضع لسيادة العقل، التي تمنع أي انحراف في تطور الإنسانية، لأن طبيعة العقل البشري الضامن الوحيد للتقدم في الحضارة.[10]

---

9 ـ مصطفى النشار: **فلسفة التاريخ**، مرجع سابق، ص 85.

10 ـ المرجع نفسه، ص 86.